

المناحة الدائمة

في الأغاني المصرية

للاستاذ محمد قلب

في مصر - في أغانيها وموسيقاها - مناحة دائمة . فحينما استمعت إلى المذيع أو إلى المترين في المجالس والطرق طرقت أذنك تلك الألحان الحزينة المتهالكة الشاكية تتخللها آهات كآهات المرضى أو حشرجات كحشرجات المحتضرين !

والدنيا جميعها تالم وتفرح وتهلأ وتهور وتتعاقب عايشاً الشعورات البشرية المختلفة ولكننا في مصر في نشيج دائم متحد المعنى مماثل الأنغام لا يختلف إلا في الصوت الذي يؤديه !

الدنيا كلها تحس نشاط الربيع الزاهر الذي يفتت التيود وينطلق بالنفس الإنسانية حينما تستطيع الانطلاق ، وتحس بوقدة الصيف اللاذع الذي تتقى أو تحب حرارته ، وتحس بهدأة الخريف الراكد المظلم الحزين ، وتحس بلذع الشتاء المؤلم الذي تنطوى فيه النفس على ذاتها أو تصيح بالألم ، ولكننا في مصر في حريف دائم من الأحاسيس ، محزونون راكدون لانخرج مرة إلى نشاط الحياة !

وهذا عجيب . فليس من المعقول أن يكون الله قد منح الشعوب جميعها نعمة الحياة المتجددة المختلفة الألوان وخص مصر وحدها بهذا الموت الفنى الذى تاهت أنفاسها تحت عبئه الثقيل .

ليس هذا بمعقول . وإنما مصيبة مصر أنها نكبت بطائفة من الموسيقين يشج في أحاسيسهم اللين والطراوة ، فتنبعث ألحانهم منكسرة وخيبة توحى بالترانى والكسل ولا توحى مرة واحدة بالنشاط والحياة .

وقد حاول هؤلاء الموسيقيون أو المدافعون عنهم أن يتهموا الشعب المصرى بأسره بأنه شعب مريض متخاذل حزين ، وقالوا في سبيل الاستدلال أنه لو لم يكن مريضاً لما قبل هذه الألحان المريضة ولا طرب لها هذا الطرب الشديد !

وهذا منطوق مقلوب . فأى شعب في الدنيا يقدم له هذا الغذاء المسموم باستمرار ولا يقدم له غيره أبداً ثم يبقى في بنيته بعد ذلك شئ من السلامة ولو كان من أخص الشعوب ؟

ومع ذلك فقد بقيت في هذا الشعب الذين يدعون عليه المرض بقية كبيرة في المدن وفي الصعيد وفي الريف لم تفسدها الأغاني المائعة ولم تفسخ طبيعتها، فبقيت تترنم بألحان فيها قوة وسلامة لعل المستمعين إلى الإذاعة قد لحظوها في الأغاني الصعيدية التي تداع بين الحين والحين فيقبل عليها الشعب ويردها في كل مكان .

وهم يقولون إن الشعب المصري بطبيعته شعب حزين فلا تلاءمه إلا الأنغام الحزينة التي تشبه ألحان الحناجر . ويستدلون على ذلك بأن الألحان الفرعونية التي عاشت حتى الروم في الكنائس وغيرها كلها ألحان حزينة مشجبة لافرح فيها ولا انطلاق . وهذا بعض الحق وليس هو الحق كله . فلا شك أن الشعب المصري ميال إلى الحزن مندفع إليه ولكن لا شك أيضا في أنه ميال إلى الفرح مندفع إليه بقوة . فلا تجد مجالا للفرح و"الهزيمة" إلا اغتتمه المصري وأغرق فيه . بل إن المصري يبرح الاندفاع إلى كثير من العواطف . فهو سريع الحزن سريع الغضب سريع الفرح سريع الحماسة سريع الهدوء بعد ذلك . فما بال هؤلاء الموسيقيين قد راحوا يضربون على النغمة الحزينة وحدها ولا يغيرونها أبدا مع أن المصري شديد الاستعداد لأن يتلقى غيرها من النغات وخاصة ما هو متصل بالفرح والحماسة ؟ !

لقد عمدوا إلى ذلك ثم راحوا بعد ذلك يتهمون الشعب كله بالخور والقصور .

ثم مسألة أخرى . فلنفرض جدلا أن الشعب المصري لا يستطيع إلا أونا واحدا من الغناء هو الغناء الشجي الحزين، فمن قال إن الحزن والشجي يعينان المرض والذلة والانكسار . إن الحزن ألوان عدة منها القوي ومنها الضعيف، منها السليم ومنها المريض، فلماذا لا يقدمون للشعب حزنا آدميا سليما إن كان لا بد من الحزن؟ وإن كان يعوزهم المشال فليذهبوا إلى قرى الصعيد وليستمعوا هناك إلى الشجي الحقيقي . شجي الرجل الذي يتألم فتحس في ألمه بالرجولة لم تنكسر ولم تدل، وتحس أنه شجي إنسان حتى يتعذب فيرسل نفسه لحنا شجيا وليس هو تأوهات لينة مستخذيه الأئين .

وهم يقولون أيضا إن الشعب المصري بعد أن طال عليه الاحتلال قد صار يحس في "لا شعوره" بالألم وعلى هذا نأغانهم المريضة هي الصدى الحقيقي لإحساس الشعب . وفي ذلك شيء من الحق وليس الحق كله . فقد مرت على الشعب فترات كان لا يجد فيها نفسه ولا يحس بكيانه . ولكن الشعب الذي هضم الحضارات كلها وابتلع جميع أنواع الاحتلال وبقي بعد ذلك كله محافظا على تقاليده وعاداته لم يؤثر فيه شيء ، ذلك الشعب لا يمكن أن تموت روحه الكامنة أو تمهن على ممر العصور وإن هي إلا قشرة رقيقة تزيحها حتى تجد مصر الحقيقية - مصر القوية من وراء تلك المظاهر الجوفاء .

فهل حاول هؤلاء الموسيقيون أن يتعرفوا روح مصر الحقيقية وأن يمثلوها لنا في فن صحيح ؟

ويقولون إن الألحان المصرية أو الشرقية الخالصة لا تكفى وحدها للتعبير الفنى الكامل ويبررون بهذا ما يقومون به من السرقة الصريحة من الألحان الغربية ما يوافقنا منها وما لا يوافقنا سواء !

وخروج موسيقى مصري واحد كسيد درويش استطاع أن يقدم ألوانا مختلفة من الموسيقى للتعبير عن الألوان المختلفة من الأحاسيس ، واستطاع أن يقدم فوق ذلك تعبيرا إنسانيا صحيحا لا مرض فيه ولا حيوانية مستخدما في ذلك الألحان المصرية والشرقية الخالصة — موسيقى واحد كسيد درويش يتقى جميع هذه المزاعم التي يستر وراءها أولئك الموسيقيون . ثم إن الموسيقى فن واحد من الفنون التي تعبر عن النفس الانسانية ولها أخوات هي الشعر والتصوير والنحت وغيرها من الفنون ... فما بال هذه الفنون الأخرى قد تقدمت جميعها خطوات واسعة وبقيت الموسيقى وحدها متخلفة عاجزة عن أن تسير النهوض ؟ إن الشعب الذى أخرج فطاحل الأدباء والشعراء المصريين وأخرج مصورين بارعين ومثاليين مجيدين لا يمكن أن يكون كل جهده الموسيقى هو ذلك الذى تقدمه لنا طائفة الموسيقيين الحاليين . ولا بد أن يكون في أطوائه زخيرة فنية أرقى من ذلك يعوقها عن الظهور هذا الجلو المسمم بالفناء المريض .

أيها الموسيقيون ، لقد شعبنا تهالكا وحرنا . أسمعونا مرة واحدة لحن الحياة . أو تتعوه عن الطريق ..

محمد قطب